فلسفة السؤال والتساؤل عند أبى حيان التوحيدي



كتبها د . حامد طاهر	
الجمعة, 29 أكتوبر 2010 15:06 - تم التحديث في الجمعة, 09 يناير 2015 6:39	

*)	طاف	ام ۱ ،	۱~	1	i
···)	طاها	مد	~		

السؤال رغبة فى العلم ، أما التساؤل فهو أسلوب فى التعلم . ولما يكاد يوجد مفكر عربى وصلتنا مؤلفاته مملوءة بالأسئلة والتساؤلات مثل أبى حيان التوحيدى ، صحيح أن الحارث المحاسبى (ت 243هـ (وضع كتابه "المرهاية" فى صورة سؤال منه وإجابة من شيخه (الممجهول) ، وصحيح أيضًا أن الحكيم الترمذى (ت 285هـ) قد طرح بدون إجابة (155) سؤالما حول موضوع الولماية ، وظلت أسئلته مطروحة على المجميع إلى أن أجاب عنها محيى الدين بن عربى (ت 388هـ) فى موسوعته المكبرى "الفتوحات المكية" .

لكننا مع التوحيدى نلتقى بنزعة غالبة فى طرح الأسئلة ، وإثارة التساؤلات، بل بفن متكامل يمكن أن نطلق عليه "فن السؤال والتساؤل".

ومن المقرر أن لكل فن أصولاً وقواهد ، كما أن له غاية وأهدافاً ، وهو دائمًا مرتبط بفلسفة عامة يصدر عنها ، ويتحرك في إطارها.

وإذا كان السؤال يعبر عن استفهام مباشر يطرحه التوحيدى على أحد أساتذته أو زمالئه ليتلقى عنه إجابة محددة ، كما فعل مع مسكويه (421هــ) فإن التساؤل يتم طرحه على النفس ، أو كما فعل التوحيدى على أحد أساتذته الذين لا يمكننا أن نتأكد تمامًا من أنهم قد أجابوه عنه ، أو حتى نتأكد من أنه قد طرح عليهم أساسًا تلك الأسئلة، كما فعل مع السجستاني (ت حوالي 38)(1. (

وأنا أميل إلى الشك في أن التوحيدي قد سأل السجستاني بالفعل كل هذه الأسلة ، كما أشك في أن السجستاني قد أجابه عنها بتلك الصورة ، وأذهب إلى أن كلاً من الأسئلة والإجابات معًا هي من صنع التوحيدي. ومن أقوى الأدلة على ذلك ما نجده من نضج في

كتبها د . حامد طاهر الجمعة, 29 أكتوبر 2010 15:06 - تم التحديث في الجمعة, 99 يناير 2015 6:39

الـأسئلة ، يتجاوز مستوى التلميذ الذى يسأل لكى يعرف ، بل إنها أقرب إلى أسئلة الصحفى المخضرم الذى يكون على دراية تامة بالموضوع ، ثم يختار شخصية مشهورة لكى يجعلها تنطق بما يريد(2). كذلك فإن الملاحظة الدقيقة للغة السؤال والـإجابة تكشف عن نقاط تشابه كثيرة .

تؤكد كلها أنها من صنع شخص واحد (وأنا هنا أدهو إلى إجراء دراسة أسلوبية تهدف إلى استخراج البصمة اللغوية للتوحيدى، ومقارنتها بأساليب الشخصيات التي أورد لها أقولاً في مؤلفاته. (

المعروف أن السؤال يطرحه الإنسان على ذوى الخبرة والمعرفة ليجيبوه عنه ، وأن التساؤل هو السؤال الذى يطرحه الإنسان على نفسه ، إما مندهشًا أو متحيرا أو أحيانًا متهكمًا - وقد استخدم التوحيدى الأسلوبين معًا . أما السؤال فكان مع فيلسوف الأخلاق مسكويه(3) .

ومسكويه فيلسوف معروف ومشهور . و آراؤه مبسوطة فى كتبه التى وصلتنا بعضها . و أما التساؤل فقد استخدمه التوحيدى باسم السجستانى(4) ، وكان من هؤلاء المثقفين الكبار الذين يميلون إلى إشاعة التنوير عن طريق الجلسات والمنتديات أكثر مما يركزون على تأليف الكتب والرسائل ، وربما كاذوا أكثر علمًا وثقافة من المؤلفين المحترفين(5

ويبدو لى أن التوحيدى قد استغل اسم هذه الشخصية الثقافية الكبيرة ليقدم من خلالها تصوراته وآراءه ووجهات نظره فى شتى مجالات المعرفة والثقافة فى عصره ، إلى جانب أخلاقيات المجتمع وسلوكياته. وذلك مثلما فعل أفلاطون عندما قدم آراءه ونظرياته من خلال أستاذه سقراط. وهكذا فإن أسئلة التوحيدى - التى طرحها بصفة خاصة على السجستانى - ليست أكثر من تساؤلات أى أسئلة مطروحة على النفس ، استخدم فيها اسم السجستانى كما استخدم أفلاطون فى محاوراته اسم سقراط(6

لماذا يلجأ المفكر إلى أسلوب السؤال والتساؤل ؟ هناك عدة أسباب ، ويمكن أن تكون كلها أو بعضها وراء ذلك . فهناك أولاً : حساسية المهفرطة لدى بعض المفكرين الذين يقفون من الكون والأحداث والبشر موقف المستغراب ، أو محاولة الموصول إلى حقائق المأشياء ، وهللها البعيدة (7) . وهناك ثانيًا : الشعور بالخشية من مواجهة المجو السائد في المجتمع ببعض الدّراء التي تخالفه ، أو تصدمه ، وبالتالي تثير الغضب على صاحبها .

وهناك ثالثًا: الرغبة في تعليم المآخرين ، والمأخذ بأيديهم من حالة الجهل واللامبالاة إلى حالة المعرفة والاهتمام ، ثم هناك أخيرًا: إحداث الصدمة الضرورية في بيئة تسيطر عليها المقولات الجامدة ، والخطاب القاطع الوحيد. إن الثقافة عندما تنتشر فى مجتمع ما قد تتحول فى لحظة معينة، وبفعل عوامل محددة ، إلى حالة من الاستقرار الذى يكرس الثبات والتقليد والنمطية . وهنا لابد من أن تجدد الثقافة نفسها ، بظهور بعض المفكرين الذين يفتحون فى هذا الجدار السميك ثقبًا ، أو يلقون فى تلك البحيرة الراكدة بحجر . وفى هذه لحالة ، يعتبر كل من السؤال والتساؤل مدخلاً ضروريًا لتحريك السكون ، ودفع الواقفين إلى مواصلة المسير ، وإقلاق راحة المواثقين !

لقد دارت أسئلة المتوحيدى وتساؤلاته حول النفس البشرية ، وأسرار الوجود ، وخفايا اللغة ، كما لمست أخلاق الناس ، وتعرضت لمناهج التفكير ، وتناولت علاقة الفلسفة بالدين ، وصلة الأصيل بالوافد ، أو المحلى بالعالمى . وفى هذا الراطار قد لما تكون الإجابات مهمة بنفس القدر الذى ينبغى أن تكون عليه الأسئلة والمساؤلات ، وذلك لسبب بسيط هو أن المراجابات تختلف فى قوتها وضعفها ، وتتفاوت فى صحتها واستمرارها ، ولكن المأسئلة والمساؤلات تظل محتفظة بقيمتها ، وخاصة عندما قدور حول القضايا الرئيسية المتصلة بالمرابسان والمكون والمصير .

لقد اشتهر التوحيدى بما سبق أن أطلقه عليه ياقوت فى معجم الأدباء بأنه أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء ، وتنازعه الدارسون فى مجالى الأدب والفلسفة. والواقع أن التوحيدى يمثل فى الثقافة العربية نموذجًا يوجد أمثال له فى الثقافات الأجنبية . وقد حاول الباحث الموسوعى الكبير عبد الرحمن بدوى أن يقيم علاقة تشابه بين التوحيدى وكافكا فى مجال التشاؤم ، والنزعة العدميه(8).

ولمكننى أختلف معه فى ذلك. فالتوحيدى يدور فى إطار بينما كافكا متحرر من أى إطار ، والتوحيدى مؤمن يحيره الشك أحيانًا ، ولمكن قلب كافكا فارغ من الإيمان ، وأخيرًا فإن التوحيدى يرتكز على مجموعة من المبادئ الأخلاقية والااجتماعية فى حين أن كافكا يسعى إلى هدمها من الأساس.

وفى حدود معرفتى بالثقافة الفرنسية ، أقول باطمئنان إن دور التوحيدى فى الثقافة العربية يتشابه إلى حد كبير مع دور ميشيل دى مونتانى M.ntagne فى الثقافة الفرنسية (9) ، وهو الدور الذى يتمثل فيما يمكن أن نطلق غليه "إهادة النظر" فى كل ما يحيط بالإنسان ، مع الغوص فى أهماقه للبحث عن أصل الموجود ، وأسرار الكون ، وختام الحياة . ومن المواضح أن "إهادة النظر" تتطلب عينًا تتوقف أمام المألوف على أنه غريب ، وأمام العادى على أنه نادر مدهش ، كما أنها ليست عينًا بطيئة الحدقة ، تنظر فى اتجاه واحد ، بل هى عين واسعة الرؤية تنتقل بين العديد من الأشياء ، وبسرعة كبيرة ، وأحيانًا خاطفة

كيف يمكن للمثقف الجاد أن يعيد النظر فيما حوله ؟ بوسائل متعددة ، من أكثرها فعالية استخدام طريقة السؤال والتساؤل ، التى كان يتقنها التوحيدى ، موظفًا طاقته الأدبية فى حسن الصيافة ، وتشقيق الكلام ، وحشد المترادفات التى تمتلئ بها لغة غنية مثل الملغة المعربية . يقول التوحيدى : "يا هذا ! قد صرفت لك القول فى فنون من العبارة ، على ضروب من الإشارة "(1) وعدم المتنبه لذلك هو الذى أدّى بكثير من الباحثين إلى تصنيف التوحيدى فى مجال الأدب ، مع أنه لما يستخدم الأدب وأدواته المتاحة فى عصره إلما كوسيلة للتعبير عن أفكاره الفلسفية ، أو بمصطلح أدق : نزعته الفكرية والأخلاقية .

كتبها د . حامد طاهر الجمعة, 29 أكتوبر 2010 15:06 - تم التحديث في الجمعة, 99 يناير 2015 16:39

لقد كان التوحدى بدون شك يملك نفسًا متطلّعة إلى المعرفة ، وروحًا موسوعية تهدف إلى الإلمام بكل شئ ، ولعل هذا هو السبب الذى جعله ينفر - فى مطلع حياته من العزلة التى هى طابع المفكرين المتأملين ، ويسعى بكل نشاط إلى المشاركة فيما يمكن أن نطلق عليه "الصالوذات الأدبية" التى از دهرت فى عاصمة الخلافة ، خلال القرن الرابع الهجرى (11). وميزة هذه الصالوذات أنك تلتقى فيها بالثقافة الحيّة ، والمأفكار التى تشغل الناس فى حياتهم اليومية . لكنها من ناحية أخرى تضم إلى جانب رجال الفكر الرفيع : أدعياء العلم .

والمتفيهقين بالمعرفة ، وأصحاب المنصب والثروة الذين يرغبون فى استكمال وجاهتهم الماجتماعية برهاية الفنون والآداب. وهنا يجد المثقف المثقف الجاد نفسه فى مأزق حقيقى : فإما أن يجارى الزيف ، والمنفاق ، والمظهرية ، وإما أن ينسحب من الميدان تاركًا كل شئ . وهذا ما فعله المتوحيدى فى آخر حياته.

لقد قيل إنه قد انتهى من رحلة الرفبة العارمة فى المعرفة ، والشك والحيرة ، والسؤال والتساؤل - يانسًا أو مستسلمًا ، والدليل على ذلك ما نقر أه فى آخر مؤلفاته "المهاأ اللهية"(12) - الذى هو عبارة عن أطول مناجاة بشرية لله تعالى فى اللغة العربية ، وربما فى سائر اللغات المأخرى . وفيه يقول : "إذا ضللت عن حكمة الله فقف عند قدرته ، فإنه إن فاتك من حكمته ما يشفيك ، فلن يفوتك من قدرته ما يكفيك(13) ويقول أيضًا : "ويحك ! كيف تحكم بـ لم على خالق الله ؟ أم كيف تحتج بالحجة على مظهر الحجة ؟ أم كيف تدل بالعقل على منشئ العقل ؟ أم كيف تدل بالعلم ؟

ولكننا هنا ينبغى أن ننبه إلى أمر هام ، وهو أن حالة المستسلام عن إدراك الحقيقة ، أو إجابة الأسئلة والتساؤلات التى تظهر بوضوح تام عند المتوحيدى فى آخر مؤلفاته - لا يصح تعميمها على "المعرفة الإنسانية" بكل فروهها . فهو يقول بصراحة "إن الله وهب لك هذا الإحساس (جمع حس يعنى حاسة) لتعتبر بها فيما ترى ، وتسمع ، وتذوق ، وتشم ، وتلمس"(15) وإذن فالمقصود من الاستسلام هو العجز المبشرى عن الماحاطة بأبعاد القدرة الإلهية في سموها وتعاليها . يقول التوحيدي : "من توجه إلى الله استسلم"(16) وهذا ما نجده عند كبار فلاسفة الصوفية على مر العصور .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى دراسة أولية لأسئلة التوحيدى ، وجدنا أهم مؤلفاته فى هذا الصدد ، وهو كتاب (الهوامل والشوامل)(17) الذى طرح فيه (175) سؤالاً على مسكويه . وأول ما نلاحظه على تلك الأسئلة هو مدى المتنوع الشديد فيما بينها . فهى تدور حول الإلهيات والطبيعيات والإنسانيات . وتلك هى الدوائر المثلاث ، التى إذا أضيف إليها دائرة الرياضيات تمثلت أمامنا الموسوعة الفلسفية فى إطارها الكلاسيكى ، التى وصلت إلينا من الإفريق

وكما تختلف أسئلة التوحيدى فى مجالاتها السابقة ، فإنها تتراوح بين البساطة والعمق. فهذلك الأسئلة السهلة التى يمكن أن ينشغل بها عامة الناس ، وإذا سمعها أى إنسان تطلع إلى معرفة الإجابة عنها (بل من الممكن جدًا أن تستغلها حاليًا ، أى مجلة معاصرة لتجذب بإثارتها القراء (ومن ذلك مثلاً:

- -1 لماذا تواصى الناس بكتمان الـأسرار ، وتحرجوا من إفشائها ، ومع ذلك لم تنكتم ؟
  - -2 ما السبب في اشتياق الإنسان إلى ما مضى من عمره ؟
    - -3 لم قبح المثناء في الوجه ، وحسن في المغيب ؟
- -4 لم صار بعض الناس إذا سئل عن عمره نقص في الخبر ، و آخر يزيد على عمره ؟
- -5 لم صار البنيان إذا لم يسكنه الناس تداعى عن قرب ، وما هذا هو إذا سكن واختلف فيه ؟
  - -6 لم صارت غيرة المرأة على الرجل أشد من غيرة الرجل على المرأة ؟

وإلى جانب أمثال هذه الأسئلة البسيطة ، أو التى تبدو كذلك ، نلتقى بأسئلة أخرى تؤدى مباشرة إلى ما نطلق عليه "التفلسف" ، أى تأمل أحداث الحياة من منظور فكرى يسعى للفهم ، ومحاولة إزالة الغموض أو التناقض عن المعنى الكلّى للحياة والكون ، ومن ذلك :

- -1 ما وجه الحكمة في آلام الأطفال ، ومَنْ لا عقل له من الحيوان؟
- -2 ما علة كثرة غم من كان أهقل ، وقلة غم من كان أجهل في المأفراد والمأجذاس.
- -3 لم كلما شاب البدن شب الدامل ؟ وهل اشتمل الدامل على مصالح العالم ؟ وإن كان مشتملاً فلم تواصى الناس بقصر الدامل ، وقطع الداماني ؟
  - -4 لم اشتد عشق الإنسان لهذا العالم حتى لصق به ، و آثره ، وكدح فيه ، مع ما يرى من صروفه ونكباته و زواله بأهله ؟
    - -5 لم كان فرح الإنسان بني ل ما لم يحتسبه ويتوقعه أكثر من فرحه بدرك ما طلب، ولحوق ما زال؟
      - -6 لم صار اليقين إذا حدث وطرأ لا يثبت ولما يستقر ؟ والشك إذا عرض أرسى ورض (أي استقر)؟

ثم إن هذاك مجموعة من الأسئلة ، تتجه إلى تفسير الظواهر والتغيرات الطبيعية ، وتستدعى بالتالى نوعًا من المعرفة التجريبية ، وحثًا عليها . ومن ذلك :

- -1 ما الحكمة من وجود الجبال؟
- -2 لم صار البحر في جانب من الأرض ؟
  - -3 لم صارت مياه البحر ملحًا؟
- -4 لم كان صوت الرحد إلى آذاننا أبطأ وأبعد من رؤية البرق إلى أبصارنا ؟
  - -5 على ماذا يدل انتصاب قامة المإنسان من بين سائر الحيوان؟

و أخيراً ، هذاك مجموعة من الأسئلة تشير - بصورة غير مباشرة - إلى نقد اجتماعى ، وتعبر بذاتها عن موقف أبى حيان نفسه من بعض المظواهر والمفارقات التى تحدث فى المجتمع ، وتنتشر فى الحياة الثقافية ، ومن ذلك :

- -1 ما بال أصحاب التوحيد لا يخبرون عن البارى إلا بنفى الصفات؟
- -2 ما المفرق بين العرافة والكهانة والتنجيم والطرق والعيافة والزجر؟ وهل تشارك العرب في هذه الأشياء أمة أخرى؟
- -3 ما علة كراهية النفس الحديث المعاد ؟ وما سبب ثقل إعادة الحديث على المستعاد ؟ وليس فيه في الحال الثانية إلما ما فيه في الحالة المأولى ؟ فإن كان بينهما فارق فما هو ؟
- -4 لم صار الإنسان إذا صام أو صلى زائداً على الفرض المشترك فيه حقر غيره ، وتكبر حتى كأنه صاحب الوحى ، أو الواثق بالمغفرة والمنفرد بالجنة ، وهو مع ذلك يعلم أن العمل معرض للآفات التي تحبطه وتجعله هباء منثوراً ؟
  - ولعل من أوضح الـأمثلة فى هذه المجموعة ما نجده فى السؤال التالى ، وما ألحقه به التوحيدى من تعليق حاد ، يكاد يصادر به على الـإجابة المطلوبة ، إن كان الـأمر - من وجهة نظره - يحتاج إلى إجابة :
- -5 ما المذى سوّغ للفقهاء أن يقول بعضهم فى فرج واحد: هذا حرام ، ويقول الآخر فيه بعينه هذا حلال ؟ وكذلك المال والنفس ؟ كلام هذا يوجب قتل هذا ، وصاحبه يمنع من قتله . ويختلفون هذا الماختلاف الموحش ، ويتحكمون هذا التحكم القبيح ، ويتبعون الهوى والمشهوة ، ويتسعون فى طريق التأويل ، وليس هذا من فعل أهل الدين والورع ، ولما من أخلاق ذوى العقل والمتحصيل . هذا وهم . يزعمو ن أن الله قد بين المأحكام ، ونصب المأعلام ، وأفرد المخاص من العام ، ولم يترك رطبًا ولما يابسًا إلما أودعه كتابه ، وضمّنه خطابه

والذى يعيد تأمل هذه المجموعات التى سبقت من الأسئلة سوف يلاحظ قاسمًا مشتركًا بينها جميعًا، وهو أن السؤال يتجه إلى محاولة المتعرف على (علة) الشئ، أو )حكمته)، ولذلك يستخدم فيها أداة الماستفهام (لم)، وحتى عندما يستخدم أداة أخرى مثل (ما) فإنها تلحق مباشرة بكلمة (علة) أو (حكمة). ومن المعروف أن البحث عن العلة كان وما يزال هو الطابع (العام) للفلسفة، بينما اتجه العلم إلى البحث عن الكيفية، أى خصائص الشئ وصيرورة هذه الخصائص من أجل الماستفادة المِباشرة منها

لكن السؤال الفلسفى ، من ذاحية أخرى ، حين يتجه إلى البحث عن العلة ، لا يكون عامًا فى كل الأحوال . فهناك العلة القريبة والمباشرة [والعلة البعيدة أو الغائبة . والفيلسوف حين يطرح أسئلته لمعرفة العلل القريبة فإنه يقدم خدمة جيدة للعلم ، وخاصة فى مجال نشأة الظواهر ، وتتابعها ، أو اتصال بعضها ببعض .

كذلك فإن هناك من الأسئلة الفلسفية ما يعد نوعًا من (التحليل العقلى) الذى يساعد فى التعرف على بعض جوانب الظاهرة أو جزئياتها ، وذلك بالإضافة إلى أن معظم الأسئلة الفلسفية تهدف إلى (التركيب العقلى) أى وضع الإجابات الصغيرة والمبعثرة حول ظاهرة ما فى إطار كلى شامل .

ويبقى أن السؤال الفلسفى يحمل فى ذاته دعوة إلى البحث ، والتعرف ، والاكتشاف . وهو بذلك كله يمهد البيئة المناسبة للبحث العلمى الذي يمكنه أن يسترشد بعلامات الاستفهام الفلسفية ليحدد الأرض التي يقيم عليها بناءه .

من هنا ، ينبغى أن ندرك قيمة الدور التمهيدى الكبير الذى آداه التوحيدى للثقافة العربية عن طريق استخدام السؤال والتساؤل ، وما يمكن أن يحدثه ذلك من تحريك السكون ، وغربلة المتوارث ، وفتح آفاق جديدة ومتجددة للمعرفة .

لقد كان على العلماء - حينئذ - أن يبدأوا العمل من تلك البيئة الجديدة التى أعدها لهم التوحيدى، وكان على من أتى بعده من المفكرين أن يكونوا أكثر جرأة واقتحاماً ، وكان من الضرورى أن يستمر إنتاج الأسئلة وطرح التساؤلات حتى لا يخيم شبح الركود ، والمسلمات القطعية التى لا تقبل نقاشًا ، ولما تتحمل إحادة النظر !

كتبها د . حامد طاهر الجمعة, 29 أكتوبر 2010 15:06 - تم المتحديث في الجمعة, 09 يناير 2015 16:39

لكن ماذا حدث للثقافة العربية بعد التوحيدى ؟

عادت الغلبة لاستقرار الحلول السابقة التى أبدعها الأجداد فى ظروف مختلفة ، وتكونت هالات التقديس حول كثير من الأسماء غير المعصومة من الخطأ ، واستعان كثير من العلماء بالسلطة الزمنية لفرض آرائهم على مجرى الحياة ، بدلاً من أن يتركوا تلك الآراء لقانون التجربة ، وما يفرضه من معايير الصواب والخطأ . وفى مجال التعليم الذى يسبق الثقافة ويمهد لها - صار التلقين والحفظ والشرح والتلخيص هى الأعمدة الأساسية التي يقوم عليها صرح الثقافة العربية

وإذا كانت المقدمات تؤدى دائمًا إلى نتائجها ، فقد كان من أهم هذه النتائج

:

اختفاء المابداع ، ومحاربة المتجديد ، وغياب روح المدهشة ، وضمور فن المسؤال والمتساؤل

\* \*